

OCCURRENCES CONTRARY TO THE PREFERRED AND PREDOMINANT USAGE IN SELECTED VERSES OF THE HOLY QUR'AN

[10.35781/1637-000-193-004](#)

الباحث/ بندر بدر الرشدي

الملخص

وأظهرت الدراسة أن مخالفة الأفضلية أو الأغلبية في التعبير القرآني ليست خروجاً عن الأصل، وإنما هي اختيار بلاغي تفرضه مقتضيات السياق، ومراعاة المقام، وتحقيق الانسجام بين اللفظ والمعنى، وإبراز الدلالة المقصودة بأوجز تعبير وأبلغه. كما كشفت النتائج عن دقة النظم القرآني، وأن كل موضع جاء وفق حكمة بيانية تتلاءم مع سياقه، مما يؤكد جانباً من وجوه الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، ويبرز أثر التقديم والتأخير في توجيه المعنى وإثراء الدلالة.

الكلمات المفتاحية: خلاف - الأفضلية - الأغلبية - الذكر الحكيم.

يهدف هذا البحث إلى دراسة ما ورد على خلاف الأفضلية والأغلبية في آيات من الذكر الحكيم، والكشف عن الأسرار البلاغية التي اقتضت العدول عن الأسلوب الغالب في التقديم والتأخير، وبيان أثر ذلك في انسجام النظم القرآني ودقة دلالاته. اعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي، من خلال استقراء الآيات التي ورد فيها هذا الأسلوب، والرجوع إلى كتب التفسير والبلاغة وعلوم القرآن، وتحليلها في ضوء السياق القرآني، واشتملت الدراسة على تمهيد تناول بلاغة القرآن وسر إعجازه وأصل نظمه، ثم مبحثين؛ خصص الأول لدراسة ما ورد على خلاف الأفضلية في القرآن الكريم، والثاني لما ورد على خلاف الأغلبية في التقديم، مع بيان الأغراض البلاغية في كل موضع،

OCCURRENCES CONTRARY TO THE PREFERRED AND PREDOMINANT USAGE IN SELECTED VERSES OF THE HOLY QUR'AN

RESEARCHER: BANDAR BADR AL-RASHIDI

Abstract

This study investigates occurrences in the Holy Qur'an where the Qur'anic expression departs from the preferred or predominant order of presentation, with the aim of revealing the rhetorical secrets underlying such departures and explaining their role in the coherence and precision of Qur'anic discourse. The study adopts the descriptive-analytical approach through a comprehensive examination of the relevant Qur'anic verses, supported by classical works on Qur'anic exegesis, rhetoric, and Qur'anic sciences. The research consists of an introduction and two main chapters. The first chapter examines verses that depart from the preferred order, while the second focuses on verses that depart from the predominant pattern of presentation, highlighting the rhetorical purposes served in each case. The findings demonstrate that these

departures are not arbitrary deviations from the norm but deliberate rhetorical choices dictated by contextual requirements, the demands of the situation, and the harmony between wording and meaning. The study further reveals the remarkable precision of the Qur'anic structure, showing that every instance of precedence and postponement is employed to achieve a specific semantic and rhetorical purpose. These findings underscore one of the eloquent aspects of the Qur'an's linguistic miracle and illustrate the significant role

of word order in directing meaning and enriching textual interpretation.

Keywords: Disagreement – Preference – Majority – The Holy Qur'an.

المقدمة:

الحمد لله الذي أتم علينا نعمه العديدة، وهذب نفوسنا في الإسلام جيلة وعقيدة، والصلاة والسلام على خير مبعوث وخير مرسل، محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فلا زال ولا يزال القرآن الكريم منهلاً عذباً ومعيناً لا ينضب وإعجازاً لا تنتهي عجائبه، وقطعاً سيدوم هو الحاكم والناصر في كل الموضوعات التي تحدث فيها، فلا يختلف على شيء فيه إلا وهو منصور فيه وغالب؛ لأنه: ﴿لَا يَأْنِيهِ الْبُطْلُ مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42] فلا يتصور أن يعقب عليه أو ينتقد، والدارسون في العربية وعلومها يدركون هذا جيداً ويعرفونه ملياً؛ ولذا فهم يدافعون ويردون عنه إلى الوصول إلى الحقيقة ومراد القرآن ومعناه، وأردنا من هذا العمل أن يكون بداية لدراسة أشمل وأكثر توسعاً.

أهداف الدراسة:

يهدف هذا البحث إلى تقصي الآيات التي وردت على خلاف الأفضلية والأغلبية، في الذكر الحكيم ودراستها دراسة بلاغية متحريراً بذلك براعة النظم وحسن التأليف، واكتشاف اللطائف البليغة ونفائس الدلالات السياقية لما يقتضيه المقام.

مشكلة الدراسة:

الحاجة إلى المزيد من البحث والتفتيش في درر الذكر الحكيم وتحفيز طلاب العلم لاكتشاف ما تتضمنه آياته من وجوه لا حصر لها من الإعجاز...

الدراسات السابقة:

لم أجد في حدود بحثي دراسات سابقة لموضوع هذا البحث على وجه الخصوص، ومرجعي في هذا البحث يعتمد على ما احتوته كتب التفاسير واللغة.

خطوات ومنهج الدراسة:

قسمت هذه الدراسة إلى: تمهيد: في بلاغة القرآن، وسر إعجاز اللغوي، والأصل في نظمه وتعبيره، المبحث الأول: ما ورد على خلاف الأفضلية في الذكر الحكيم، المبحث الثاني: ما ورد على خلاف الغالب في التقديم في القرآن الكريم، الخاتمة: مصادر البحث.

التمهيد: في بلاغة القرآن، وسر إعجاز اللغوي، والأصل في نظمه وتعبيره

قد جاء القرآن بلغة قريش، وهي أفصح العرب وأبينها للنطق والكلام؛ لأنها كانت ملتقى العرب في نسكها وديناها باعتبار الحج وموسمه ومواسم التجارة والأسواق التي كانت تقام فيها، وكان نزول القرآن الغرض منه أن يكون معجزة لهذه الأمة وتكفل الله تعالى بحفظ هذه المعجزة لتبقى خالدة على مر العصور.

تحير العرب من بلاغة القرآن وتأهوا في معانيه، وتساءلوا أنى يكون لهذا القرآن أن يكون من حروف لغتنا التي نتقنها ونبارى بها ونحن أفصح من نكون، ثم لا نستطيع أن نقول مثله أو شبيهه خاصة وأنا متحدون بذلك من قبل قائله، فبان منه أن الأمر إنما هو في غاية البراعة والبيان يعجز إنسان عن الإتيان بمثله لأنه فوق حدود طاقته رغم أن أدواته بأيديهم، هذه هي قصة البلاغة والفصاحة في القرآن الكريم، وليس شيء على مثله أبداً.

ثم قد تبارى العلماء في تسمية وتبيين وجه الإعجاز اللغوي فمنه من أرجعه إلى براعة النظم فيه، ومنهم من رده إلى اختيار الألفاظ وتركيب المعاني، ومنهم من قال التوازن بين براعة المعنى وانتقاء اللفظ. وكان أكثر من عني بذلك الإمام عبد القاهر الجرجاني رحمه الله، والذي رد إعجازه إلى نظمه وتركيبه الرائع الذي لم يعهد العرب مثله، قال: "هذا ما ينبغي للعاقل أن يجعله على ذكر منه أبداً، وأن يعلم أنه ليس لنا إذا نحن تكلمنا في البلاغة والفصاحة مع معاني الكلم المفردة شغل، ولا هي ممّا بسبيل، وإنما نعمل إلى الأحكام التي تحدث بالتأليف والتركيب. وإذ قد عرفت مكان هذه المزية والمبالغة التي لا تزال تسمع بها، وأنها في الإثبات دون المثبت، فإن لها في كل واحد من هذه الأجناس سبباً وعلّة"⁽¹⁾.

فرده إلى براعة النظم وحسن التأليف بين كلماته، وهو قد تجاوز حدود النحو - رغم أنه على لغتهم - وتجاوز حدود تشبيهاهم واستعارتهم - رغم أنهم فهموا مراده من هذه أيضاً - وكذلك قد خطا بهم خارج حدود الزمان والمكان، وأخذ لبهم من بلاغته وفصاحته التي أفرغتهم، وهم أساطين البلاغة والبيان؛ وتلك بضاعتهم وشعراؤهم قد تلاعبوا بالألفاظ والمعاني، ولما رأوا منه ما خالف معهودهم كانت عقولهم وأقندتهم - رغم معارضتهم لصاحب الرسالة - أضعف من تستكر شيئاً من ذلك، بل عرفوا أن المراد أجل من التزام القاعدة، وهو بالمخالفة قد أنشأ قاعدة جديدة أصل مما خالفه.

(1) الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، (72/1).

وفيه يقول الإمام ابن القيم⁽¹⁾: "للقرآن عرف خاص ومعان معهودة لا يناسبه تفسيره بغيرها، ولا يجوز تفسيره بغير عرفة والمعهود من معانيه، فإن نسبة معانيه إلى المعاني كنسبة ألفاظه إلى الألفاظ، بل أعظم فكما أن ألفاظه ملوك الألفاظ وأجلها وأفصحها، ولها من الفصاحة أعلى مراتبها التي يعجز عنها قدر العالمين، فكذلك معانيه أجل المعاني وأعظمها وأفخمها، فلا يجوز تفسيره بغيرها من المعاني التي لا تليق به، بل غيرها أعظم منها وأجل وأفخم، فلا يجوز حمله على المعاني القاصرة بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي، فتدبر هذه القاعدة، ولتكن منك على بال فإنك تنتفع بها في معرفة ضعف كثير من أقوال المفسرين وزيفها وتقطع أنها ليست مراد المتكلم تعالى بكلامه"⁽²⁾.

وفي هذا قدر كاف للعلم أن القرآن كانت بلاغته فائقة حدود القاعدة والأساس والاحتمال، وأن جلالته التي كانت له هي من الفصاحة والبيان في نظمه وتركيبه وانتقاء المعنى واللفظ والتواؤم بينهما وحسن التعبير عظمة المخالفة في موقعها وأسلوبها والإيحاءات التي تلتها وفهمت من جرائها إلى غير ذلك الكثير مما سيبين معنا بإذن الله في قابل الحديث، والله المستعان.

التقديم والتأخير في الذكر الحكيم:

الأصل في الكلام تقديم ما حقه التقديم، وتأخير ما حقه التأخير، ولا يعدل عن هذا الأصل إلا بحجة يجب التسليم لها.

قال أبو جعفر النحاس: «التقديم والتأخير إنما يكون إذا لم يجز غيرهما»⁽³⁾.

وقال أبو عمرو الداني: «التقديم والتأخير لا يصح إلا بتوقيف أو بدليل قاطع»⁽⁴⁾.

وقال شيخ الإسلام: «والتقديم والتأخير على خلاف الأصل، فالأصل إقرار الكلام على نظمه وترتيبه لا تغيير ترتيبه، ثم إنما يجوز فيه التقديم والتأخير مع القرينة، أما مع اللبس فلا يجوز؛ لأنه يلتبس على المخاطب»⁽⁵⁾.

مثال: قوله تعالى: {وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۖ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ} [سورة الأعلى: 4-5].

(1) شمس الدين ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي الشيخ الإمام العلامة الحنبلي المعروف بابن قيم الجوزية مولده في 691هـ، ومن تصانيفه زاد المعاد، تهذيب سنن أبي داود، الكافية الشافية لانتصار الفرقة الناجية، وتوفي في 751هـ. ينظر: صلاح الدين، الوافي بالوفيات (195/2) وابن نصر الدين، الرد الوافر لابن (86/1).

(2) ابن قيم الجوزية، شمس الدين، بدائع الفوائد، (3/ 27: 28).

(3) النحاس، أبو جعفر، القطع والانتشاف، (ص157).

(4) أبو عمر، الداني، المكتفى في الوقف والابتداء، (ص245، 437).

(5) ابن تيمية، دقائق التفسير (6/ 123).

الأحوى: شديد السواد ، أو الأخضر الضارب إلى السواد من شدة الخضرة.
والغناء: الهشيم اليابس.

وفي معنى الآية قولان:

الأول: أن الله أخرج المرعى أخضر، ثم جعله من بعد الخضرة هشيماً متكسراً، مائلاً إلى السواد من القدم.

الثاني: أن الله أخرج المرعى أحوى؛ أي: أخضر شديد الخضرة، مائلاً بشدة خضرته إلى السواد، ثم جعله هشيماً متكسراً، ويكون على هذا القول (أحوى) مؤخراً حقه التقديم.

قال ابن جرير الطبري معلقاً على هذا القول: «وهذا القول وإن كان غير مدفوع أن يكون ما اشتدت خضرته من النبات قد تسميه العرب أسود، غير صواب عندي، بخلاف تأويل أهل التأويل في أن الحرف إنما يحتال لمعناه المجرد بالتقديم والتأخير إذا لم يكن له وجه مفهوم إلا بتقديمه عن موضعه، أو تأخيره، فأماً وله في موضعه وجه صحيح فلا وجه لطلب الاحتيال لمعناه بالتقديم والتأخير»⁽¹⁾.

مقتضيات التقديم والتأخير:

يقول صاحب الفصول المفيدة: "الغالب في التقديم إنما هو اعتبار المعنى وذلك بأحد خمسة أشياء هي: الزمان والطبع والرتبة والسبب والفضل فإذا سبق معنى من هذه المعاني إلى الخلد والفكر سبق اللفظ الدال على ذلك المعنى وكان ترتب الكلام بحسب ذلك، وهذا كله على وجه الأولوية وبيان المناسبة لا على وجه اللزوم، وأنه لا يجوز غيره، بل وقع خلاف ذلك مع عدم المناسبة، وقد يكون في اللفظ معنيان من هذه الخمسة، فيقدم بسبب أحدهما في موضع، ويؤخر بسبب الآخر في موضع آخر لتقدم ما يكون أهم منه في ذلك الموضع بالنسبة إلى ذلك المعنى"⁽²⁾، ولذلك فإن يقرر العلاني أن التقديم يرتبط غالباً بمراعاة المعنى وترتيب عناصره في الذهن، مع بقاء هذا الترتيب قائماً على المناسبة والأولوية لا على قاعدة ملزمة، وهو ما يتيح اختلاف ترتيب الألفاظ بحسب المعنى الأهم في السياق.

"والقرآن الكريم يقدم الألفاظ ويؤخرها حسبما يقتضيه المقام فقد يكون سياق الكلام مثلاً متدرجاً حسب القدم والأولوية في الوجود، فيرتب الكلمات على هذا الأساس فيبدأ بالأقدم ثم الذي يليه وهكذا وذلك نحو قوله تعالى: { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } [سورة الذاريات: 56]، فخلق الجن قبل خلق الإنس بدليل قوله تعالى: { وَلَبَّأَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ } [سورة الحجر: 27]، فذكر الجن أولاً ثم ذكر الإنس بعدهم.

(1) مساعد الطيار كتاب فصول في أصول التفسير (ص143-144)

(2) العلاني صلاح الدين كتاب الفصول المفيدة في الواو المزينة ص112

ونحو قوله تعالى: {لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ} [سورة البقرة:255]؛ لأن السَّنة وهي النعاس تسبق النوم فبدأ بالسنة ثم النوم.

وجعلوا من ذلك تقديم الليل على النهار والظلمات على النور قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [سورة الأنبياء:33]، فقدم الليل؛ لأنه أسبق من النهار؛ وذلك لأنه قبل خلق الأجرام كانت الظلمة، وقدم الشمس على القمر؛ لأنها قبله في الوجود، وقال: {يُقَبِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ} [سورة النور:44]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، ومثل تقديم الليل على النهار تقديم الظلمات على النور كما ذكرت، قال تعالى: {وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} [سورة الأنعام:1]؛ وذلك لأن الظلمة قبل النور لما مر في الليل⁽¹⁾.

قالوا: ومن ذلك تقديم العزيز على الحكيم، حيث ورد في القرآن الكريم، {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [سورة الحشر:1]، قالوا لأنه عزَّ فحكم.

ومنه تقديم القوة على العزة؛ لأنه قوي فعزَّ أي غلب بالقوة، فالقوة أول قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [سورة الحج:40]، وقال: {وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا} [سورة الأحزاب:25].

وقد يكون التقديم بحسب الفضل والشرف منه تقديم الله سبحانه في الذكر كقوله تعالى: {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [سورة النساء:69]؛ فقدم الله على الرسول، ثم قدم السعداء من الخلق بحسب تفاضلهم، فبدأ بالأفضلين، وهم النبيون ثم ذكر من بعدهم بحسب تفاضلهم، كما تدرج من الفئة القليلة إلى الكثرة، فبدأ بالنبيين، وهو أقل الخلق، ثم الصديقين، وهم أكثر ثم الشهداء، ثم الصالحين، فكل صنف أكثر من الذي قبله، فهو تدرج من القلة إلى الكثرة، ومن الأفضل إلى الفاضل، ولا شك أن أفضل الخلق هم أقل الخلق إذ كلما ترقى الناس في الفضل قلَّ صنفهم.

ومن ذلك قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا} [سورة الأحزاب:7]، فبدأ بالرسول؛ لأنه أفضلهم⁽²⁾.

(1) السامرائي فاضل صالح - لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، ص480.

(2) السامرائي فاضل صالح - لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ص481

المبحث الأول: ما ورد على خلاف الأفضلية في الذكر الحكيم

التقديم والتأخير في القرآن الكريم يقرره سياق الآيات، فقد يتقدم المفضل، وقد يتقدم

الفاضل⁽¹⁾.

وفي هذا المبحث حاولت جاهدا إحصاء الآيات التي تقدم فيها المفضل على الأفضل مستعينا بكل ما تيسر لي من مصادر ومراجع متحرّياً الغرض البلاغي الذي لأجله وقعت تلك المخالفة، ويرى ابن الأثير في هذا النوع في التقديم والتأخير أنه إذا كان مطلع الكلام في معنى من المعاني، ثم يجيء بعده ذكر شيئين: أحدهما أفضل من الآخر، وكان معنى المفضل مناسباً لمطلع الكلام، فأنّت بالخيار في تقديم أيهما شئت؛ لأنك إذا قدمت الأفضل، فهو في موضع التقديم، وإن قدمت المفضل، فلأن مطلع الكلام يناسبه، وذكر الشيء مع ما يناسبه أيضاً وارد في موضعه فمن هذا الأسلوب قوله تعالى: {إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرِّجْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَّا قَدَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ} [سورة الشورى: 48]، إلى قوله: {أَوْ يَرْوِجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} [سورة الشورى: 50]، فإنه إنما قدم الإناث أولاً على الذكور، مع تقدمهم عليهن، ثم رجع فقدم الذكور وآخر الإناث بعد ما نكرهن وعرف الذكور؛ لأنه ذكر البلاء في آخر الآية، وكفران الإنسان بنسيانته الرحمة السابقة عنده، ثم عقب ذلك بذكر ملكه ومشيتة، وذكر قسمة الأولاد، فقدم الإناث؛ لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء، لا ما يشاؤه الإنسان، وكان ذكر الاناث، التي هن من جملة ما لا يشاؤه الإنسان ولا يختار أهم، فالأهم واجب التقديم، ولبلاء الجنس الثاني (الذي) كانت العرب تعدّه بلاءً، ذكر البلاء، ولما أخر الذكور، وهم أحق بالتقديم ثم تدارك ذلك بتعريفه إياهم؛ لأن التعريف تنويه بالذكر، (كان) كأنه قال: (ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم)، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير، وعرف أن تقديم الإناث لم يكن لتقدمهن، ولكن لمقتضى آخر، فقال: (أو يزوجهن) ذكراً وإناثاً، وهذه دقائق لطيفة، قلما يتنبه لها أو يعثر على رموزها⁽²⁾.

الموضع الأول: تقديم هارون على موسى:

قال تعالى في سورة طه: {فَأَتَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا أَمَّا نَارِبَ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٧٠﴾ قَالَ أَمْنَمْتُ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تُقِصِرُوا أَيْدِيَكُمْ وَأَجْلُكُم مِّنْ خَلْفٍ وَلَا صَلِّبَنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾} [سورة طه: 70-71].

(1) السامرائي صالح أسرار البيان في التعبير القرآني ص 61

(2) ابن الأثير الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور (ص 178)

ولصاحب التحرير تفصيل ممتع في ذلك، فيقول: (يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ دَلَالَةٌ عَلَى تَعْلِبِ مُوسَى عَلَيْهِمْ فَسَجَدُوا تَعْظِيمًا لَهُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدُوا بِهِ تَعْظِيمَ فِرْعَوْنَ، جَعَلُوهُ مُقَدِّمَةً لِقَوْلِهِمْ آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى حَدَرًا مِنْ بَطْشِهِ، وَسَجَدَ: جَمَعَ سَاجِدٍ.

وَجُمْلَةُ قَالُوا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، أَيْ أُلْقُوا قَائِلِينَ. وَيَصِحُّ أَنْ تَكُونَ بَدَلِ اشْتِمَالِ مِنْ جُمْلَةٍ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَجْدًا فَإِنْ سَجَدَهُمْ اشْتَمَلَ عَلَى إِيْمَانِهِمْ، وَأَنْ تَكُونَ مُسْتَأْنَفَةً أَبْدَائِيَّةً لِفَتْحِ الْمَحَاوَرَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ فِرْعَوْنَ.

وَلَمَّا آمَنُوا بِاللَّهِ حِينَئِذٍ لِيَأْتِيَهُمْ أَيْقُنُوا أَنَّ مَا جَرَى عَلَى يَدِ مُوسَى لَيْسَ مِنْ جِنْسِ السَّحَرِ لِأَنَّهُمْ أَمَّهَ السَّحَرُ فَعَلِمُوا أَنَّهُ آيَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

وَتَغْيِيرُهُمْ عَنِ الرَّبِّ بِطَرِيقِ الْإِضَافَةِ إِلَى هَارُونَ وَمُوسَى لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا بِهَذِهِ النَّسْبَةِ لِأَنَّ لَهُمْ أَرْبَابًا يَعْبُدُونَهَا وَيَعْبُدُهَا فِرْعَوْنُ⁽¹⁾.

ويجدر في هذا المقام أن أورد ما ذكره المطعني في سياق حديثه عن الفواصل في الذكر الحكيم فيقول: (وموسى إذا قُدِّمَ على هارون فذلك جار على الأصل عندهم. لأن موسى أفضل من هارون. فإذا قُدِّمَ هارون على موسى. وهو مفضل بالنسبة له فذلك عندهم - أي تقديم هارون على موسى - ليس إلا لفضيلة السجع)⁽²⁾.

ولأن الفواصل فيه جارية على "الإلف" ومنها: { وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى } (سورة طه: 129)، حيث فصل بين المعطوف والمعطوف عليه من أجل السجع. لأن تقدير الكلام: "ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاماً".

ويشير المطعني هنا إلى من يرجعون التقديم والتأخير في أغلب الآيات إلى مراعاة الفواصل والسجع وقد أورد رد الباقلاني على ذلك، حيث يقول: "إن تقديم موسى على هارون مرة وتأخيره عنه أخرى، ليس من أجل السجع، وإنما هو إيراد للقصة الواحدة بالفاظ مختلفة تؤدي معنى واحداً، وهذا من الأمر الصعب الذي تظهر فيه البلاغة"⁽³⁾.

وهناك اعتباران - لم يفتن لهما الباقلاني - يؤيدان مذهبه، وهما أن أفضلية موسى على هارون ليست على الإطلاق؛ لأن هارون يفضل موسى بفصاحة اللسان، وكمال هيئة النطق وتقدمه في السن عليه، إذ يكبره بثلاث سنوات، كما جاء ذلك في العهد الجديد.

(1) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (431/27).

(2) المطعني، عبد العظيم، كتاب خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، (222/1).

(3) المطعني، عبد العظيم، كتاب خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، (222/1).

وكمال هيئة النطق وفصاحة البيان أمر له قيمته في مقام التبليغ، وقد شهد به موسى نفسه، كما حكى عنه القرآن: (هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا)، فلا يبعد أن يكون تقديم هارون على موسى من أجل هذا الاعتبار⁽¹⁾.

الموضع الثاني: تقديم الأنعام على الناس في قوله تعالى: {لِنُجِىَّ بِهِ بَلَدَةً مِّيتًا وَشُقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا} [سورة الفرقان:49].

ويوضح ابن الأثير سر هذا الإعجاز البلاغي في هذا النظم في قوله: (ألا ترى كيف قدم حياة الأرض وإسقاء الأنعام على إسقاء الناس؟ وإن كان الناس أشرف محلاً وأعلى مكاناً. وسبب ذلك ما أذكره لك وهو أن حياة الأرض سبب لحياة الأنعام والناس. ولما كانت الأنعام أيضاً من أسباب التعيش والحياة للناس قدمها على الناس في الذكر، ولأن حياة الناس بحياة أرضهم وأنعامهم، فقدم ما هو سبب حياتهم وتعيشهم على سقيهم. فهذه نكت القرآن العجيبة ورموز أسرارها اللطيفة التي إذا مر الإنسان عليها من غير أن يتدبرها، ويعطيها أفضل تأمل وتفكر لا يقع على خباياها، ولا يظفر بغرائبها⁽²⁾).

الموضع الثالث: تقديم الحكمة على العلم

ومرد ذلك إلي ما يقتضيه حسن السياق وملائمة المعنى وهذا ما يذهب إليه الزركشي في البرهان حينما أورد قوله تعالى: {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ} [سورة الأنبياء:79]، فإنه قدّم الحكم مع أن العلم لا بد من سبقه للحكم ولكن لما كان السياق في الحكم قدّمه قال تعالى: {وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَنَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ} [سورة الأنبياء:78]، ويحتمل أن المراد بالحكم الحكمة وبها فسر الزمخشري قوله تعالى في سورة يوسف: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا} [سورة يوسف:22]⁽³⁾.

وفي ذلك براعة في النظم وحسن التأليف كما يقول الإمام الجرجاني.

الموضع الرابع: تقديم أصحاب اليمين على السابقون في قوله تعالى: {وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً

۷) فَأَصْحَبُ الِّيمَنِ مَآ أَصْحَبُ الِّيمَنِ ۝ ۸) وَأَصْحَبُ الشِّعْمَةِ مَآ أَصْحَبُ الشِّعْمَةِ ۝ ۹) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝ ۱۰) أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝ ۱۱) [سورة الواقعة:7-11].

(1) المرجع السابق، (1/223)

(2) ابن الأثير الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور (ص177)

(3) الزركشي، بدر الدين البرهان في علوم القرآن ص262

ولم أجد تفسيراً بلاغياً أعذب وألطف في هذا النظم المعجز مما أورده صاحب التنوير، حيث قال:

"وليس صنفاً قد انقضى وسبق الأمة المحمدية. وآخر السابقون في الذكر عن أصحاب اليمين لتشويق السامعين إلى معرفة صنهم بعد أن ذكر الصنفان الآخرين من الأصناف الثلاثة ترغيباً في الاقتداء.

وجملة أولئك المقربون في جنات النعيم، مستأنفة استئنافاً بيانياً لأنها جواب عما يثيره قوله: والسابقون السابقون من تساؤل السامع عن أثر التنويه بهم.

وبذلك كان هذا ابتداء تفصيل لجزاء الأصناف الثلاثة على طريقة النشر بعد اللف، نشرًا مشوشًا تشويشاً اقتضته مناسبة اتصال المعاني بالنسبة إلى كل صنف أقرب ذكراً، ثم مراعاة الأهم بالنسبة إلى الصنفين الباقيين فكان بعض الكلام أخذاً بحجز بعض.

والمقرب: أبلغ من القريب لدلالة صيغته على الاصطفاء والاجتباء، وذلك قرب مجازي، أي شبه بالقرب في ملابسة القريب والاهتمام بشؤونه فإن المطيع بمجاهدته في الطاعة يكون كالمتقرب إلى الله، أي طالب القرب منه فإذا بلغ مرتبة عالية من ذلك قربه الله، أي عامله معاملة المقرب المحبوب، كما جاء: «ولا يزال عبيدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه» وكل هذه الأوصاف مجازية تقريبا بمعنى التقريب.

ولم يذكر متعلق المقربون لظهور أنه مقرب من الله، أي من عنايته وتفضيله، وكذلك لم يذكر زمان التقريب ولا مكانه لقصد تعميم الأزمان والبقاع الاعتبارية في الدنيا والآخرة.

وفي جعل المسند إليه اسم إشارة تنبيه على أنهم أحرى بما يخبر عنه من أجل الوصف الوارد قبل اسم الإشارة وهو أنهم السابقون على نحو ما تقدم في قوله تعالى:

{أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [سورة البقرة: 5-1].

وقوله: في جنات النعيم خبر ثان عن أولئك المقربون أو حال منه.

وإيقاعه بعد وصف المقربون مشير إلى أن مضمونه من آثار التقريب المذكور⁽¹⁾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (ص288 ص289).

وللإمام الجرجاني توضيح في سر البلاغة في تكرار قوله: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ}، فيقول: وهم من أصحاب اليمين، ولكنهم أفردوا بالذكر لشرفهم، ولأنهم عبدوا الله تعالى لله لا لعاجلة ولا لأجله⁽¹⁾.

الموضع الخامس: تقديم أهل النار على أهل الجنة في قوله تعالى: {يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ النَّفْسُ إِلَّا بِذِيهِ فَعِنَّهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ} (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُورٍ (١٠٨) [سورة هود: 105-108].

وبلاغة هذا النظم كما يقول ابن الأثير: "أنه لما كان الكلام مسوقا في ذكر التخويف والتحذير، وجاء على عقب قصص الأولين وما فعل الله بهم من التعذيب والتدمير؛ كان الأليق أن يوصل الكلام بما يناسبه في المعنى، وهو ذكر أهل النار؛ فمن أجل ذلك قدموا في الذكر على أهل الجنة، وإذا رأيت في القرآن شيئا من هذا القبيل وما يجري مجراه فتأمله وأمعن نظرك فيه حتى يتبين لك مكان الصواب منه"⁽²⁾.

(1) الجرجاني عبد القاهر درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر ص 613.

(2) ابن الأثير كتاب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ت محيي الدين عبد الحميد - ص 44.

المبحث الثاني

ما ورد على خلاف الغالب في التقديم في القرآن الكريم

إن فن التقديم والتأخير فن رفيع يعرفه أهل البصر بالتعبير والذين أوتوا حظاً من معرفة مواقع الكلم وليس ادعاء يدعى أو كلمة تقال.

وقد بلغ القرآن الكريم في هذا الفن كما في غيره الذروة في وضع الكلمات الوضع الذي تستحقه في التعبير بحيث تستقر في مكانها المناسب. ولم يكتف القرآن الكريم الذي وضع اللفظة بمراعاة السياق الذي وردت فيه بل راعى جميع المواضع التي وردت فيها اللفظة ونظر إليها نظرة واحدة شاملة في القرآن الكريم كله. فنرى التعبير متسقاً متناسقاً مع غيره من التعبيرات كأنه لوحة فنية واحدة مكتملة متكاملة⁽¹⁾.

الموضع الأول: تقديم الرحيم على الغفور

جاء ذلك على خلاف ما وردت عليه آيات القرآن الكريم في سورة سبأ قوله تعالى: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ} [سورة سبأ: 2].

والغالب في سائر القرآن الغفور الرحيم ولعلي أنهل من معين أعذب ماورد من علمائنا وأجمعه في ما يلي:

يقول العلائي: "وأما تقديم الغفور على الرحيم في الغالب فهو بالطبع لأن المغفرة سلامة والرحمة غنيمة والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة وجاء في سورة سبأ تقديم الرحيم على الغفور وذلك تقديم إما بالفضل والكمال وإما بالطبع أيضاً، لأن الآية منتظمة، وذكر أصناف الخلق من المكلفين وغيرهم من الحيوان فالرحمة تشملهم والمغفرة تخص بعض المكلفين والعموم متقدم بالطبع على الخصوص"⁽²⁾.

ويقول السامرائي: (أن المغفرة سلامة والرحمة غنيمة والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة وإنما تأخرت في سورة سبأ، ...، فالرحمة شملتهم جميعاً والمغفرة تخص بعضاً، والعموم قبل الخصوص بالترتبة. ولإيضاح ذلك أن جميع الخلق من الإنس والجن والحيوان وغيرهم محتاجون إلى رحمته فهي برحمته تحيا وتعيش وبرحمته تتراحم وأما المغفرة فتخص المكلفين فالرحمة أعم⁽³⁾).

ويضيف المطعني "لو قرأنا الآية في سورة سبأ {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} ^(١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ

(1) السامرائي فاضل صالح - لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ص479.

(2) - صلاح الدين العلائي الفصول المفيدة في الواو المزيذة ص116.

(3) فاضل صالح السامرائي لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ص484.

الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ { [سورة سبأ: 1-2]، لم يتقدّم الآية ما يخصّ المكلفين أبداً والمغفرة لا تأتي إلا للمكلفين والمذنبين الذين يغفر الله تعالى لهم وإنما جاء ذكرهم بعد الآيتين الأولى والثانية لذا اقتضى تأخير الغفور لتأخر المغفور لهم في سياق الآية. أما في باقي سور القرآن الكريم فقد وردت الغفور الرحيم لأنه تقدّم ذكر المكلفين فيغفر الله تعالى لهم فتطلب تقديم المغفرة على الرحمة⁽¹⁾.

ويرى صاحب التفسير البياني أن سر البلاغة في تقديم "الرحيم" على "الغفور" في قوله تعالى: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾} [سورة سبأ: 2]؛ لأن الرحمة أعظم من المغفرة، وذلك بأن الرحمة تكون بإيصال الخير بكل صوره، وتكون المغفرة بالمسامحة والتجاوز، ومن هنا فإن المغفرة صورة من صور الرحمة، فالرحمة أعظم.

ولذا فإن تقديم الرحمة على المغفرة أولى في سياق بيان عظمة الله سبحانه وتعالى، وتقديم المغفرة على الرحمة في سياق ما يتعلق بالعباد أولى؛ لأن المغفرة سلامة، والرحمة غنيمة، والسلامة بالنسبة للعباد أولى من الغنيمة⁽²⁾.

الموضع الثاني: تقديم النفس على الأموال في آيات الجهاد

والأغلب هو تقديم الأموال على النفس في الجهاد حيث ما وقع في القرآن الكريم إلا في موضع واحد وهو قوله: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَنِّلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [سورة التوبة: 111].

وأما سائر المواضع فقدم فيها المال نحو قوله: {تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾} [سورة الصف: 11]، وقوله: {وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ} [سورة التوبة: 20].

فكان تقديم النفس هو الأولى لأنها هي المشتراة في الحقيقة وهي مورد العقد وهي السلعة التي استلمها ربها وطلب شراءها لنفسه وجعل ثمن هذا العقد رضاه وجنته فكانت هي المقصود بعقد الشراء والأموال تبع لها فإذا ملكها مشتريها ملك مالها فإن العبد وما يملكه لسيده ليس له فيه شيء فالمالك الحق إذا ملك النفس ملك أموالها فحسن تقديم النفس على المال⁽³⁾؛ وذلك هو الإعجاز الذي تحدى به القرآن فصاحة العرب وبلاغتهم.

(1) عبد العظيم المطعني أسرار البيان في التعبير القرآني ص 68

(2) سامي القدومي - التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني ص 37

(3) ابن القيم- كتاب بدائع الفوائد - (ج1/ ص 77-78)

الموضع الثالث: تقديم اللهو على اللعب والغالب تقديم اللعب:

تقدم اللعب على اللهو في القرآن في المواضع الثلاثة الآتية:

- 1 - الأنعام في آيتين: { وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَٰعِبٌ وَلَهُوَ وِلْدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ } [سورة الأنعام: 32]، { وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَٰعِبًا وَلَهُمْ وِعْرَتُهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا } [سورة الأنعام: 70].
- 2 - محمد في آية واحدة: { إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَٰعِبٌ وَلَهُوَ وِلْدَانٌ تُؤْمِنُوا وَتُنْفِقُوا فِي بُنْيَانِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَلَكُمُ ۤأَمْوَالُكُمْ ﴿٣١﴾ } [سورة محمد: 36].

3- الحديد في آية واحدة: { أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَٰعِبٌ وَلَهُوَ وِزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بَنَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُمْ مُصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا ۚ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿٢٠﴾ } [سورة الحديد: 20].

وقد خالف ذلك فتقدم اللهو على اللعب في موضعين:

- 1 - الأعراف: { الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَٰهَوًا وَلَٰعِبًا وَّعَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِعَائِنِنَا بِيَحْذُونَ ﴿٥١﴾ } [سورة الأعراف: 51].
- 2 - العنكبوت: { وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَٰهَوٌ وَلَٰعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَٰهِيَ الْحَيَوةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ } [سورة العنكبوت: 64].

وعن السر البلاغي لهذا التقديم يقول الزركشي في البرهان هذه المواضع وعلل تقديم اللعب على

اللهو بأن اللعب يكون زمن الصبا. واللهو يكون زمن الشباب، وزمان الصبا متقدم على زمان اللهو.

أما تقديم اللهو في "الأعراف" فلأن ذلك يكون يوم القيامة فذكر على ترتيب ما انقضى وبدأ

بما به الإنسان انتهى من الحاليين.

وأما في "العنكبوت" فلأن زمان الشباب الذي يكون فيه اللهو أكثر من زمان الصبا الذي

يكون فيه اللعب. وإنما ذكر ذلك هنا لأن المراد زمان الدنيا. وأنه سريع الانتضاء قليل البقاء⁽¹⁾.

وقال الكرمانى عندما تحدث معللاً ذلك التقديم: (وإنما قدم اللعب في هذه المواضع لأن زمان

اللعب، وهو زمان الصبا مقدم على زمان اللهو، وهو زمان الشباب، بيئته ما ذكر في الحديد لعب كلعب

الصبيان ولهو كلهم الشباب، وقريب من هذا تقديم لفظ اللعب على اللهو في قوله سبحانه: { وَمَا خَلَقْنَا

السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٦٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَّآتَّخِذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٦٧﴾ } [سورة

الأنبياء: 16-17].

(1) عبد العظيم المطعني خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (ص194 ص195)

وقدم اللهو في الأعراف على اللعب، لأن ذلك في القيامة، فذكره ترتيب ما انقضى وبدأ بما به الإنسان انتهى من الحاليتين، وأما تقديمه في العنكبوت فلأن المراد بذكرهما ذكر زمان الدنيا، وإنه سريع الانقضاء قليل البقاء.

{وَلَيْتَ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ} [سورة العنكبوت:64]، أي الحياة التي لا غاية لأمدّها ولا نهاية لأبديها، تبدأ بذكر اللهو، لأنه في زمان الشباب، وهو أكثر من زمان اللعب، وهو زمان الصبا - والله أعلم - (1)

الموضع الرابع: تقديم العذاب على المغفرة والرحمة

وقد ورد ذلك على غير الغالب في القرآن الكريم في مواضع اقتضت الحكمة فيها ترهيباً وزجراً. من ذلك قوله تعالى في سورة المائدة: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَعْفُو لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة المائدة:40]، (ولبيان الغرض البلاغي من مراعاة هذا الترتيب، نسوق بعضاً من تخریجات أهل العلم في ذلك.

يقول المطعني في أسرار البيان: "لأنها وردت في سياق ذكر قطاع الطرق والمحاربين والسراق كان المناسب تقديم ذكر العذاب وذلك أنها وردت بعد قوله تعالى: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ} [سورة المائدة:32]، فقدم القتل على الإحياء ثم قال بعدها {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [سورة المائدة:33]، ثم جاء بعدها {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [سورة المائدة:38]، ثم جاء بعدها قوله تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَعْفُو لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة المائدة:40].

فأنت ترى أن المناسب ههنا تقديم العذاب على المغفرة" (2).

(1) الكرمانى برهان الدين غرائب التفسير وعجائب التأويل (ص365 ص366)

(2) عبد العظيم المطعني أسرار البيان في التعبير القرآني ص38

ويقول صاحب اللباب في علوم الكتاب في هذا المقام:

"قوله تعالى: {يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ} ، قدم التعذيب في الذكر على الرحمة مع أن رحمته سابقة كما قال عليه الصلاة والسلام عنه تعالى: «سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي» ؛ لأن السابق ذكر الكفار فذكر العذاب يسبق ذكر مستحقه بحكم الإيعاد ، وعقبه بالرحمة فذكر الرحمة وقع تبعاً لئلا يكون العذاب مذكوراً وحده ، وهذا يحقق قوله عليه (الصلاة و) السلام عنه: «سبقت رحمتي غضبي» ، وذلك إن الله تعالى حيث كان المقصود ذكر العذاب ، لم يخصه بالذكر ، بل ذكر الرحمة معه ، فإن قيل: إن كان ذكر هذه الآية لتخويف العاصي ، وتقريح المؤمن ، فلو قال: يعذب الكافر ويرحم المؤمن لكان أدخل في تحصيل المقصود.

وقوله: {يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ} لا يرهب الكافر ، لجواز أن يقول: لعلي لا أكون ممن يشاء الله عذابي.

فالجواب: هذا أبلغ في التخويف لأن الله أثبت بهذا إنفاذ مشيئته ، وأنه إذا أراد تعذيب شخص فلا يمنعه منه مانع ثم كان من المعلوم للعباد بحكم الوعد والإيعاد أنه إذا شاء تعذيب الكافر فلزم منه الخوف العام بخلاف ما لو قال: يعذب العاصي ، فإنه لا يدل على كمال مشيئته لأنه لا يبعد أنه لو شاء عذاب المؤمن لعذبه ، وإذا لم يبعد هذا فنقول الكافر إذا لم يحصل مراده في تلك السورة يمكن أن (لا) يحصل في سورة أخرى.⁽¹⁾

الموضع الخامس: تقديم الولد على المال

ولعلي أسوق ما ذكره السامرائي حيث يقول:

"والملاحظ أنه حيث اجتمع المال والولد في القرآن الكريم ، قُدِّمَ المالُ على الولد إلا في موطن واحد ، وذلك نحو قوله تعالى: { سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا } [سورة الفتح:11].

وقوله: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [سورة الكهف:46].

وقوله: { وَجَعَلْنَا لَهُ مَالاً مَمْدُوداً^(١٢) وَبَنِينَ شُهَدَاءَ^(١٣) } [سورة المدثر:12-13] ، ونحو ذلك ، لأن المال في هذه المواطن أَدْعَى إلى التقديم ، إما لأن الانشغال به أكثر كما ذكرنا ، أو لأنه أَدْعَى إلى الزينة والتفاخر وما إلى ذلك من المواطن التي تقتضي تقديم الأموال.

أما الموطن الذي قدم فيه الولد على المال ، فهو قوله تعالى: { قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ

(1) ابن عادل - اللباب في علوم الكتاب - ص333ص334

مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَكُمُ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ [سورة التوبة: 24].

وذلك لأن المقام مقام حب. ولا شك أن المتقدمين من الأبناء والأزواج وغيرهم أحب إلى المرء من الأموال لأنه إنما ينفق المال عليهم ويُبقيهم لهم بعد رحيله عن هذه الدار.

ثم لا تتسأله أنه قدم مجموع القرابات من الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة، ولا شك أن هؤلاء بمجموعهم أحب إلى المرء من المال. فالأبناء وحدهم أثقل في ميزان الآباء من الأموال، فكيف إذا اجتمع معهم ما اجتمع مِمَّنْ يُحِبُّ⁽¹⁾.

فيرى أن السر في ذلك أن الأبناء أحب للآباء من المال وأقرب لقلوبهم.

وهنا تتجلى لك ذي بصيرة البراعة المتناهية في تناسب المعنى واللفظ وحسن التعبير.

الموضع السادس: تقديم الضرر على النفع

قد ورد في القرآن الكريم على خلاف الأغلب كما في قوله تعالى: { قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَخْرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَعْتِفُونَ } [سورة يونس: 49]، فقدم الضرر على النفع وقد قال قبل هذه الآية: { وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } [سورة يونس: 11].

وقال: { وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [سورة يونس: 12]، فقدم الضرر على النفع في الآيتين. ويأتي بعد هذه الآية قوله: { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ } [سورة يونس: 50].

فكان المناسب تقديم الضرر على النفع وهنا⁽²⁾.

ويأتي ذلك لمناسبة دلالة السياق وهذا من عظمة إعجاز النظم في الذكر الحكيم.

(1) السامرائي فاضل صالح - لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ص 182

(2) السامرائي فاضل صالح أسرار البيان في التعبير القرآني ص 36

الموضع السابع: تقديم الأنس على الجن

تقديم الجن على الإنس هو الغالب في أكثر المواضع لأن الجن تشتمل على الملائكة وغيرهم مما اجتن عن الأبصار مثل قوله تعالى: { وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَاً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ } [سورة الصافات: 158].

وقال الأعشى:

وسخر من جن الملائك شيعة قياما لديه يعملون بلا أجر

وأما ماورد على خلاف ذلك في قوله تعالى: { لَمْ يَطْمِئُنْ إِنْشَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ } [سورة الرحمن: 56]، وقوله: { فَيَوْمَئِذٍ لَا يُكَلِّمُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْشَ وَلَا جَانٌّ } [سورة الرحمن: 39]، وقوله: { وَأَنَا ظَنَنَّ أَنَّ نَقُولَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا } [سورة الجن: 5].

وأسوق السر البلاغي في ذلك كما يورده الإمام ابن القيم "إن لفظ الجن هاهنا لا يتناول الملائكة بحال لنزاهتهم عن العيوب وأنه لا يتوهم عليهم الكذب ولا سائر الذنوب فلما لم يتناولهم عموم لفظ هذه القرينة بدأ بلفظ الإنس لفضلهم وكمالهم⁽¹⁾.

ويتناول ذلك في موضع آخر في بدائع الفوائد فيقول: "أما تقديم الإنس على الجن في قوله: { لَمْ يَطْمِئُنْ إِنْشَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ } [سورة الرحمن: 56]، فلحكمة أخرى سوى ما ذكره وهو أن النفي تابع لما تعقله القلوب من الإثبات فيرد النفي عليه وعلم النفوس بطمئ الإنس ونفرتها ممن طمئها الرجال هو المعروف فجاء النفي على مقتضى ذلك وكان تقديم الإنس في هذا النفي أهم وأما قوله: { وَأَنَا ظَنَنَّ أَنَّ نَقُولَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا } [سورة الجن: 5]، فهذا يعرف سره من السياق فإن هذا حكاية كلام مؤمني الجن حين سماع القرآن كما قال تعالى: { قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ أُسْمِعَ نَفَرٍ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا } [سورة الجن: 1]، الآيات وكان القرآن أول ما خوطب به الإنس ونزل على نبيهم وهم أول من بدأ بالتصديق والتكذيب قبل الجن فجاء قول مؤمني الجن: ويضيف في قوله تعالى: { وَأَنَا ظَنَنَّ أَنَّ نَقُولَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا } [سورة الجن: 5]، بتقديم الإنس لتقدمهم في الخطاب بالقرآن وتقديمهم في التصديق والتكذيب وفائدة أخرى وهي أن هذا حكاية كلام مؤمني الجن لقومهم بعد أن رجعوا إليهم فأخبروهم بما سمعوا من القرآن وعظمته وهدايته إلى الرشد ثم اعتذروا عما كانوا يعتقدونه أولاً بخلاف ما سمعوه من الرشد بأنهم لم يكونوا يظنون أن الإنس والجن يقولون على الله كذباً فذكرهم الإنس هنا في

(1) ابن القيم بدائع الفوائد - المجلد الأول - ص 63

التقديم أحسن في الدعوة وأبلغ في عدم التهمة فإنهم خالفوا ما كانوا يسمعون من الإنس والجن لما تبين لهم كذبهم فبداءتهم بذكر الإنس أبلغ في نفي الغرض والتهمة وأن لا يظن بهم قومهم أنهم ظاهروا الإنس عليهم فإنهم أول ما أقروا بتقولهم الكذب على الله تعالى وهذا من أطف المعاني وأدقها ومن تأمل مواقفه في الخطاب عرف صحته وأما تقديم عاد على ثمود حيث وقع في القرآن فما ذكره من تقدمهم بالزمان فصحيح وكذلك الظلمات والنور وكذلك مثنى وبابه وأما تقديم العزيز على الحكيم فإن كان من الحكم وهو الفصل والأمر فما ذكره من المعنى صحيح وإن كان من الحكمة وهي كمال⁽¹⁾.

(1) ابن القيم بدائع الفوائد - المجلد الأول - ص 67

الخاتمة

تناولت الدراسة ظاهرة التقديم والتأخير في الذكر الحكيم، وركزت على المواضيع التي جاء فيها ترتيب الألفاظ على خلاف الأفضلية أو خلاف الغالب، وانطلقت من أن الأصل في الكلام تقديم ما حقه التقديم وتأخير ما حقه التأخير، وأن العدول عن هذا الأصل يرتبط بمقتضى يفرضه السياق والمعنى، واعتمدت الدراسة على كتب التفسير واللغة والبلاغة، وتتبع النماذج القرآنية للكشف عن وجوه التناسب بين ترتيب الألفاظ والمقامات التي وردت فيها.

- 1- ارتباط التقديم والتأخير بمقتضى المعنى والسياق، حيث أثبتت الدراسة أن التقديم والتأخير لم يأتي على نمط واحد، وإنما اختلف سببهما باختلاف المقام. فقد ارتبط الترتيب أحياناً بالزمان، أو بالطبع، أو بالرتبة، أو بالسبب، أو بالفضل، كما ارتبط في مواضع أخرى بمناسبة السياق وما يقتضيه من تقديم معنى على آخر. ولذلك لم يكن الترتيب اللفظي منفصلاً عن ترتيب المعاني في الآيات.
- 2- التقديم على خلاف الأفضلية جاء لمقتضيات بلاغية، فأظهرت النماذج المدروسة أن تقدم المفضل على الفاضل لم يكن خروجاً عن مقتضى البلاغة، بل ارتبط في كل موضع بعلة تناسب السياق. فظهر ذلك في تقديم هارون على موسى، والأنعام على الناس، والحكمة على العلم، وأصحاب اليمين على السابقين، وأهل النار على أهل الجنة. واختلفت وجوه التقديم بين مناسبة السياق، وترتيب المعاني، والأهمية، والتشويق، ومراعاة المقام.
- 3- مخالفة الغالب في الترتيب ارتبطت بخصوصية كل سياق، فبيّنت الدراسة أن الترتيب الغالب بين الألفاظ لا يلزم وروده في جميع المواضع؛ فقد اقتضى السياق أحياناً تقديم الرحيم على الغفور، والنفوس على الأموال، واللهو على اللعب، والعذاب على المغفرة والرحمة، والولد على المال، والضرر على النفع، والإنس على الجن. وقد اختلفت العلل باختلاف المقامات؛ فكان منها العموم والخصوص، والمحبة، والزمن، والترهيب، والسببية، وما يقتضيه سياق الكلام.
- 4- ترتيب الألفاظ في القرآن ارتبط بتنوع العلاقات بين المعاني، فكشفت الدراسة أن العلاقات التي حكمت ترتيب الألفاظ تعددت بين السببية، والتدرج الزمني، والفضل، والعموم والخصوص، والأهمية، ومناسبة المعنى للسياق. وقد ظهر ذلك في تقديم الليل على النهار، والظلمات على النور، والقوة على العزة، وفي ترتيب أصناف الخلق بحسب الفضل أو القلة والكثرة. وبذلك لم يكن تقديم أحد اللفظين على الآخر قائماً على الأفضلية المطلقة، وإنما على العلاقة التي نشأت بينهما في المقام المحدد.

المصادر والمراجع

1. الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف، البحر المحيط في التفسير، دار الفكر، بيروت.
2. ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تحقيق مصطفى جواد وجميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد.
3. ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت.
4. ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس.
5. ابن عادل، عمر بن علي الدمشقي، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت.
6. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، بدائع الفوائد، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة.
7. الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة.
8. الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، درج الدرر في تفسير الآي والسور، دار الفكر، دمشق.
9. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
10. السامرائي، فاضل صالح، أسرار البيان في التعبير القرآني، دار عمار، عمان.
11. السامرائي، فاضل صالح، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، دار عمار، عمان.
12. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
13. الطيار، مساعد بن سليمان، فصول في أصول التفسير، دار ابن الجوزي، الدمام.
14. العلائي، صلاح الدين خليل بن كيكليدي، الفصول المفيدة في الواو المزيدة، دار البشائر الإسلامية، بيروت.
15. لكرماني، برهان الدين محمود بن حمزة، غرائب التفسير وعجائب التأويل، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة.
16. المطعني، عبد العظيم إبراهيم، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، مكتبة وهبة، القاهرة.
17. القدومي، سامي، التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، دار النفائس، عمان.
18. القيسي، أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني، المكتفى في الوقف والابتداء، تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي، مؤسسة الرسالة، بيروت.
19. النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد، القطع والأثتاف، تحقيق عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي، دار عالم الكتب، الرياض.

20. الخطيب الإسكافي، محمد بن عبد الله، درة التنزيل وغرة التأويل، دار ابن القيم، الرياض.
21. خان، صديق حسن، فتح البيان في مقاصد القرآن، دار الفكر، بيروت.
22. ابن ناصر الدين الدمشقي، محمد بن عبد الله، الرد الوافر على من زعم أن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام كافراً، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت.
23. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت.



مجلة الأندلس للعلوم الإنسانية والاجتماعية

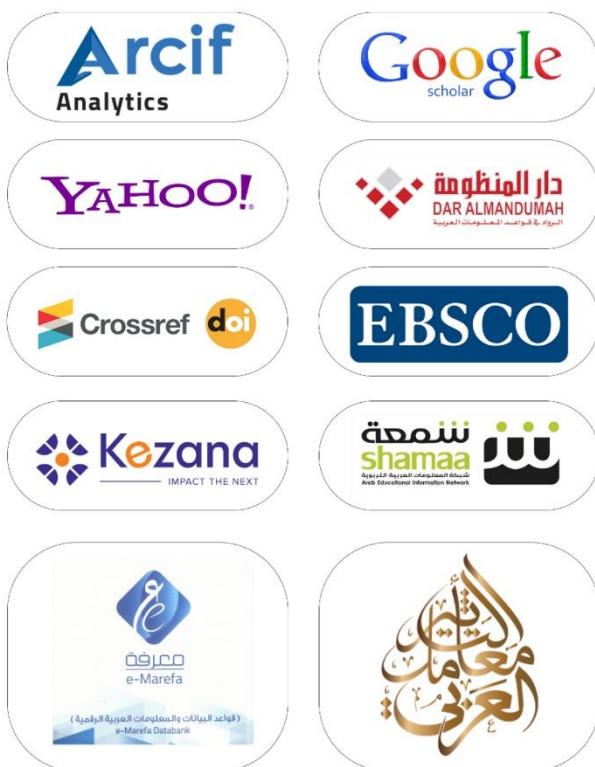
مجلة دولية شهرية علمية محكمة

الترقيم الدولي الإلكتروني: ISSN:2410- 521X

الترقيم الدولي الورقي: ISSN:2410- 1818

البريد الإلكتروني: journal@andalusuniv.net

المجلة مفهرسة في المواقع الآتية :



2025	2024	2023	2022	2021	العام
0.5978	0.3068	0.3759	0.1954	0.2692	معامل أرسيف
1.59	1.55	1.25	1.73	1.60	معامل التأثير العربي